تصدير عام

إذا كانت المجالات المنطقية والإلهية عند ابن سينا قد نالت اهتماماً كبيراً من جانب الباحثين فى الفلسفة الإسلامية ، بحيث إن سيل هذه الأبحاث وبخاصة فى القسم الإلهى ما زال مستمراً حتى اليوم ، فإن الجانب الطبيعى من فلسفته لم يحظ من جانب الدارسين بالاهتمام الذى هو به جدير ، إذا استثنينا القسم الخاص بالنفس.

نقول إن دراسة فلسفته الطبيعية ما زالت إلى حد كبير مجالاً بكراً ، وذلك إذا أدخلنا فى اعتبارنا القسم الطبيعى من كتابه « الشفاء » على وجه الخصوص ، وهو أوسع المصادر التى أمامنا ، والذى ما زالت أكثر أقسامه إما مخطوطة وإما مطبوعة طبعة رديئة يجب أن يسير الباحث فيها على حذر[1]. وكذلك كتابه «الإشارات والتنبيهات» وكتابه « دانش نامه » الذى ألفه بالفارسية ، ورسائله البالغة الأهمية والتى رد فى كثير منها على معاصره أبى ريحان البيرونى والتى تحمل دلالات عميقة بين ثناياها ، طالما نبهنا عليها من خلال صفحات هذا الكتاب . كما نرجو أن تكون هى وحدها موضوعاً لبحث مستقل يهتم بالكشف عما فيها من اتجاهات لا نتردد فى أن نقول من جانبنا إنها اتجاهات تختلف عندنا اختلافاً يكاد يكون جوهرياً عن الاتجاهات التى نجدها بين ثنايا مؤلفاته الكبرى . فهل آن لنا معشر المشتغلين بالفكر الفلسفى أن نوجه نظرنا إلى هذه الرسائل ونكشف عما فيها من عمق وجدة ، دون أن نركز على مؤلفات كبيرة له جعلتها الأضواء الساطعة فى محور الاهتمام ، وواضعة لهذه الرسائل فى زوايا النسيان ؟

قلنا إن مجالات الفلسفة السينوية — إذا استثنينا مجال الطبيعيات — قد جذبت

---

(١) لم يحقق من القسم الطبيعى من كتاب الشفاء — حتى كتابة هذا البحث — تحقيقاً علمياً ممتازاً إلا الفن الخاص بالمعادن والآثار العلوية والفن الخاص بالنبات . وقد علمت من الدكتور عبد الحليم منتصر أنه انتهى من تحقيق الفن الخاص بالحيوان . كما علمت من الأب جورج قنواتى أنه قطع شوطاً طويلا فى تحقيق الفن الخاص بالنفس . وجدير بالذكر أنه صدرت هذا العام تحقيقات فنون السماء والعالم والكون والفساد والأفعال والانفعالات ،قام بتحقيقها الدكتور محمود قاسم وراجعها وقدم لها الدكتور إبراهيم مدكور .

انتباه الباحثين . وقد نجد أمامنا الكثير من المبررات التى دفعتهم لدراسة فلسفته الإلهية مثلاً . ففيها عمق وأى عمق ، وفيها إثارة لمشكلات كانت موضع مناقشات مستفيضة عند فلاسفة العصور الوسطى ، وفيها إجابات هى حرية بأن تكون موضع تأمل واهتمام المفكر الذى تجذبه دائرة الميتافيزيقا ، وفيها امتزاج عجيب بين فكر أرسطى وفكر أفلوطينى وفكر إسلامى ، وفيها جدة قد نعدمها فى بعض مجالات بحوثه الطبيعية .

بيد أن هذا كله لا يعد فيما نرى مبرراً كافياً لتجنب البحث فى طبيعياته على أساس أوسع مصادرها عند ابن سينا ، بحيث نكاد نقول — على ضوء ما أمكننا التوصل إليه من دراسات كتبت عن هذا الجانب — إن الرجوع إليها لم يتعد سطوراً أو صفحات قليلة .

ولكن قد يشفع للباحثين تشعب فلسفته فى كل مجالاتها . إن نقطة واحدة من مئات النقاط التى أثارها فى فلسفته الإلهية تحتاج إلى أبحاث وأبحاث حتى يستطيع الدارس أن يسبر غورها . فكيف يكون الحال إذن لو أضفنا إلى هذا الجانب الإلهى ، الجانب الطبيعى ، بما فيه هو الآخر من تشعب فى البحث ونظريات عديدة ومسائل لا حصر لها تزيد على ألف مسألة ، لدرجة أن التمييز بين جزئياتها قد يكون تمييزاً غاية فى العسر .

لم تحظ إذن فلسفته الطبيعية بالاهتمام . بل وجهت إليها الاعتراضات من كل جانب . فبعض الاعتراضات تقوم على أساس أن فى أكثر جوانب فلسفته الطبيعية تأثراً يكاد يكون تاماً بأرسطو . وبعض الاعتراضات الأخرى تستند إلى أن الكثير من النتائج التى انتهت إليها الفلسفة السينوية قد توصل العلم فى عصرنا الحديث إلى خطئها بالإضافة إلى بيان لبطلان المنهج الذى اتبع فى دراستها إلى حد كبير .

بيد أن هذا كله لا يبرر عندنا الحكم على فلسفته الطبيعية بالعدم . إن فيها نظريات وأفكار واتجاهات لا يمكن إغفالها . فهل يمكن أن ننسى أن المثل الأعلى لفلسفته كان مثلا عملياً يتمثل فى أنه كان يسعى لاكتشاف الحقيقة ؟ صحيح أنه جانبه التوفيق فى سعيه نحو هذه الحقيقة ، ولكن من منا يزعم لنفسه أنه أدرك الحقيقة

بأكملها ؟ إن الحقيقة قد لا يكون هناك من سبيل نحو بلوغها ، بل الأدنى إلى الصواب أن نقول إننا ندور حولها حتى ندنو منها ونقترب . وإذا كان فيلسوفنا قد أخذ كثيراً من الآراء عن غيره وخاصة أرسطو ، فإنه بدوره قد توصل إلى آراء خاصة به .

ولكن ما هى طريقة معالجتنا لموضوع هذا البحث ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال هى المقصد الأساسى من كتابة تصديرنا لهذا البحث .

أول ما نود أن نقوله إن هذا البحث لا يقتصر على حدود الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، بل يبحث فى صلته بسابقيه ومن جاء بعده من فلاسفة ومفكرين ، سواء كانوا مؤيدين له أو معارضين ؛ بحيث تبدو الفلسفة الطبيعية عنده من خلال صلتها بمن سبقه ومن خلال تأثيرها فى من جاء بعده .

دفعنا إلى بيان تأثره ما وجدناه عند فيلسوفنا من نظريات سبق للذين جاءوا قبله تقريرها . حتى إننا يمكن أن نعد مذهبه مصباً لمعظم التيارات الفلسفية والعلمية التى سبقته . ونستطيع أن نقرر بعد مقارنتنا بين كتابات ابن سينا فى الطبيعة وكتابات من سبقوه ، أنه قد استفاد منهم وإن كان هو لم يشر إلى بعضهم .

بيد أن هذا لا يطعن فى أهمية فلسفته الطبيعية . إن أية فكرة أو نظرية ، علمية كانت أو فلسفية يمكن أن نجد لها جذوراً تمتد من قديم الزمان . كما أن المساهمات التى يقدمها لنا أى باحث سواء فى مجال الفلسفة أو العلم لا تكون جديدة تماماً ، بل فيها أصول واتجاهات يمكن أن نجدها من بعض زواياها عند من سبقوه.

وإذا كنا قد بينا تأثر ابن سينا بمن سبقوه ومنهم على سبيل المثال أرسطو وستراتون وثابت بن قرة ويوحنا فيلوبونوس وثاوفراسطس وأفلوطين والكندى والفارابى . . . إلخ بحيث نكاد نقول إنه ما من فكرة نجدها عند ابن سينا إلا وقد أشرنا إلى مصدرها ، فإننا كشفنا عن تأثيره فى من جاء بعده . فإذا رجعنا إلى تاريخ الفلسفة وجدنا اسم فيلسوفنا يتردد بلا انقطاع ، وسيظل يتردد ما بقيت لفظة فلسفة أو لفظة علم . نجد هذا — على سبيل المثال — عند الغزالى والشهرستانى وأبى البركات البغدادى وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وفخر الدين الرازى ونصير الدين الطوسى وعضد الدين الإيجى والشريف الجرجانى وصدر الدين الشيرازى وألبرت الكبير، وغيرهم كثيرون ، بل عند

المفكرين المعاصرين أمثال جيلسون والدكتور مدكور والدكتور فؤاد الأهوانى[١] والأب قنواتى والدكتور عبد الحليم منتصر ، والذين يعملون بدوائر الفلسفة والعلم سواء فى العالم العربى أو خارجه .

إن هؤلاء وغيرهم لم تكن لتجذبهم فلسفة ابن سينا والاهتمام بدراستها وتأييدها أو معارضتها إلا لأنهم وجدوا فى فلسفته عناصر جديدة ومقومات خاصة تميز مذهبه عن المذاهب السابقة عليه ، بحيث يمكن القول إنه ترك طابعه الدائم على الفلسفة ، وهذا الطابع هو ما لفت الأنظار إلى دراسة أفكاره والانتهاء إلى دحضها أو تأييدها .

هذا التأثير والتأثر سيجده القارئ واضحاً خلال صفحات هذا البحث . وهذا ما جعلنا نتتبع فكرة فكرة داخل فلسفة ابن سينا الطبيعية رامين الغوص وراء أفكار ابن سينا البالغة التشعب والصعوبة حتى نردها إلى مصدرها ونبين تأثيرها فيمن جاء بعده .

ونحسب أن رد بعض أفكار فيلسوفنا إلى ما سبقها من أفكار عند أسلافه من فلاسفة اليونان أو فلاسفة الإسلام ، لا ينهض دليلاً على عدم أصالة فيلسوفنا ، ومتابعته لأسلافه متابعة تامة . فمن من الفلاسفة تحمل أقواله طابع الأصالة فى كل زواياها وأبعادها ؟ إن أفلاطون مثلاً قد تأثر بالشرقيين وبفيثاغورث فى بعض جوانب فلسفته . وأرسطو تأثر بسابقيه تأثراً كبيراً . وأكثر فلاسفة العصر الحديث قد تأثروا بفلاسفة اليونان . حتى إنه قد يكون من الصواب أن نقول مع Will Durant فى معرض دفاعه عن ابن سينا ، بأن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم .

بعد إشارتنا إلى مسألة التأثر والتأثير ننتقل إلى مسألة أخرى نحسبها جديرة بالإشارة وتحدد من زاوية أخرى طريقة معالجتنا لموضوع هذا البحث . إننا إذا كنا قد أفضنا فى بيان المزايا التى نجدها عند فيلسوفنا ، فإن الإفاضة فى هذه المزايا يجب ألا تنسينا مقدار الخطأ الذى نجده عند ابن سينا سواء فى اتجاهاته أم فى قضاياه التى انتهى إلى تقريرها . هذا هو المسلك الذى حاولنا اتباعه فى معالجتنتا لموضوع بحثنا هذا ، حتى إننا نكاد نقول إننا لم نقتصر على تقرير فلسفته ،

---

(١) فجع العالم الإسلامى والعربى بوفاة هذا الأستاذ الفاضل فى اليوم الثانى عشر من شهر مارس عام ١٩٧٠ م بعد كتابتنا هذا التصدير . ويشاء القدر أن تكون وفاة أستاذى بعاصمة الجزائر فى الوقت الذى كنت أشتغل فيه بتدريس الفلسفة بجامعة قسنطينة بالجزائر .

بل تضمن بحثنا فى فلسفته نظرتنا الخاصة وتأويلنا الذاتى لفلسفته الطبيعية وما تتضمن من مشكلات عديدة . وإننا لمدركون تمام الإدراك أن كلاً من نظرتنا هذه وتأويلنا لفلسفته قد يثير كثيراً من الإشكالات والاعتراضات ، ولكننا وحدنا — مستندين إلى نصوص وكتب لفيلسوفنا، كتب بعضها فى أخريات أيامه — نتحمل وحدنا مسئولية الدفاع عن وجهة نظرنا .

نود أن نشير أيضاً ونحن فى معرض بياننا لطريقة معالجتنا لموضوع هذا البحث ، إلى أننا لم نحاول عرض فلسفته بطريقة التبرير والدفاع إذ أن تلك الطريقة لن تسمح لنا بفهم نظرياته حق الفهم . فإضفاء هالة من التمجيد والتقديس حوله ، يحجب أنظارنا عن الأخطاء الكثيرة التى تردت فيها فلسفته الطبيعية ، وكان من الممكن أن تظهر أمامنا واضحة بغير حجاب لولا هذا الإيمان المفرط به . ومن هنا لم يكن موقفنا فى كتابنا هذا ، ترديد آراء فيلسوفنا وحكايتها ، وإلا كان موقفنا كالببغاء التى تردد أقوال صاحبها ، بل تدبر آراءه ودراستها ثم الحكم عليها ، بحيث يمكن القول بأن بحثنا هذا هو أساساً تحليل نقدى لفلسفة ابن سينا الطبيعية .

قد يقال إننا نجد فى دراساته للكائنات الجزئية من نباتات ومعادن وحيوان وآثار علوية موقفاً جديداً تتمثل فيه الملاحظة والتجربة[1]، ولكننا — برغم اعتقادنا أن هذه الأشياء لا تدخل فى تحديدنا لإطار فلسفته الطبيعية — يمكن أن نقول من الآن ، إنه لا يمكن أن ننسى أن بحثه فى العلاقة بين المادة والصورة والقوة والفعل قد جعل نظرته للطبيعة نظرة ستاتيكية تتنافى مع البحث فى الطبيعة باعتبارها مبدأ للحركة والسكون والتغير .

من هذه المسألة التى تحدد من زاوية ما طريقة معالجتنا لهذا الموضوع ، ننتقل إلى مسألة أخرى ترتبط بها بعض الجوانب . إننا إذا كنا قد وجهنا كثيراً من النقد

---

(١) سيكون ذلك موضوعاً لبحث مستقل نرجو أن يظهر قريباً . فعلى الرغم من أن ابن سينا يدخل هذه الأشياء فى أبحاثه الطبيعية ويطلق عليها فلسفة طبيعية ، إلا أننا قد آثرنا أن نأخذ فى الاعتبار حين تحديد المقصود من الفلسفة الطبيعية ، المفاهيم الحاضرة ، لا الآراء القديمة التى تدخل فى الفلسفة الطبيعية أشياء لا تعد منها ، بل أصبح لها أبحاث مستقلة وذلك كالمعادن والنبات والحيوان . . . إلخ .

إلى مذهب فيلسوفنا ، فإن هذا لا يعنى أننا نقدنا فلسفته بناء على النتائج التى توصل إليها العلم الحديث ، بل أدخلنا فى الاعتبار حين تقويم فلسفته : العصر الذى نشأ فيه ثم مميزات تفكيره التى جعلته فى الوقت الذى تمثل فيه تراث الأقدمين ، يعد مبشراً بتيارات وأفكار جديدة كان لها تأثيرها فيمن تلاه . ونحسب أن هذا هو ما تدعونا إليه فلسفة التاريخ .

ليس من الإنصاف إذن أن نحكم على فلسفة ابن سينا بناء على ما ظهر من آراء واتجاهات جاءت بعده بمئات السنين . كما أنه من الخطأ أن نؤول أفكاره بحيث تظهر كأفكار حديثة . إننا نعتقد بأننا لو حاولنا أن نفسر أفكار فيلسوفنا بحيث نجد لها ما يقارنها من الأفكار الحديثة ، وذلك بأن نعقد مثلا مقارنات بين أقواله فى العلية وبين مشكلة الحتمية واللاحتمية والقوانين الطبيعية . . . إلخ . نقول إننا لو حاولنا هذا ، فإن تلك المحاولة مقضى عليها بالإخفاق . إذ أن الكثير من أقواله قد لا يكون لها فى ذهنه ما تحمله من دلالات فى عصرنا الحديث . ومن هنا كانت تلك المحاولة محاولة خاطئة فى دعامتها وأهدافها .

هذا الإسراف فى التأويل اتجاه خاطئ تماماً ، كما أن الحكم على أفكاره بمعيار العلم الحديث اتجاه خاطئ بدوره . وعلى هذا فلا ينبغى أن نحكم على أهميته بمقياس جاء نتيجة لتفكيرنا العلمى الحديث . فهناك تجارب علمية كثيرة لم يتسن له إجراؤها ، وهناك آلات كثيرة لم يخترعها العصر الذى عاش فيه ، وكل ذلك غير من نظرتنا للكون . وإذا كنا قد أشرنا إلى اتجاهات علمية حديثة ، ومذاهب فى الطبيعة نجدها فى العصر الحديث ، فإن هذا جاء من جانبنا فى معرض المقارنة ورغبة فى بيان تطور هذه الاتجاهات والمذاهب ، وليس القصد منه — كما قلنا — تفنيد أقواله بمعيار علمى حديث .

نقول هذا ونحن مقتنعون تمام الاقتناع بأننا لو بذلنا أقصى جهدنا فى التساؤل عن تخطى فيلسوفنا لقرون عديدة ، وأن آراءه جاءت نذراً بكشوف علمية ، فإن هذا الجهد سيكون من قبيل الوقت الضائع عبثاً . بل الأولى من ذلك — فيما نرى — هو أن ندرس نظرياته حق الدراسة وكيفية دفاعه عنها وكيف نعجب عن تصوره الاستاتيكى للطبيعة ، والذى جاء مميزاً لما نطلق عليه الطبيعة الكلاسيكية

واختلافه عما نسميه بالتصور الدينامى لها والذى تتميز به الطبيعة الكمية .

نقطة الخلاف إذن بيننا وبين ابن سينا لا تكمن فى آرائه التى انتهى إليها بقدر ما تكمن فى اتجاهه . كما تكمن أيضًا فى أنه ، وهو الذى استوعب تراث الأقدمين ومنهم الفلاسفة والعلماء الذين جاءوا قبل أستاذه أرسطو أو بعده ، قد غفل أو تغافل عن اتجاهات ، هى عندنا اتجاهات أدخل فى مجال العلم من اتجاهات أستاذه أرسطو .

برغم هذا كله فإننا لا نخفى إعجابنا بابن سينا ، ولا نتردد فى إفاضة الثناء عليه . إنه قد فتح الطريق أمام من جاء بعده ، بل جاء سابقًا لعصره فى بعض المجالات التى درسها ، وهذه هى سمة العبقرية عندنا . ومن هنا جاء تأثيره فيمن جاء بعده من فلاسفة ومفكرين . صحيح أن آراءه كانت مثاراً لنقد النقاد ، ولكنها لم تنس أو تهمل . وكيف يمكن نسيانها أو إهمالها ، وهى التى يمكن أن نعدها مفتاحًا لكثير من التساؤلات ، ونقطة التقاء من جهة ، وتتفرع عنها كثير من الاتجاهات من جهة أخرى . ومن هنا كانت عبقريته — كما قلنا — ولكنها العبقرية التى أعوزها الزمان والقدرة والتحمل والصبر . العبقرية التى أتمت بعض الأجزاء وبدأت البعض الآخر وتركت منه أجزاء ناقصة حاول خلفاؤه إتمام بنائها .

ونظن أن القارئ سيوافقنا على أن هذا لا يطعن فى عظمته ، بل إن صح ظننا فسيكون ذلك التأويل من جانبنا معينًا على تمثل عظمته . فمن من المفكرين قد أدرك الحقيقة بأكملها ؟ إن الصحيح أن نقول مع عظيم اليونان ديمقريطس : إنه أمر غير مؤكد أن نتعلم حقيقة كل شىء . وإذا كان هناك أقزام بالقياس إلى فيلسوفنا العملاق قد توصلوا إلى آراء أكثر دقة من فيلسوفنا ابن سينا ، فإننا لا يمكن أن ننسى أنهم صعدوا فوق أكتافه فتسنى لهم أن يروا مالم يستطع هو رؤيته . وإذا كان هناك مفكرون قد ساهموا فى بناء أركان العلم حتى بدا كالهضبة العديدة الثمار الوارفة الظلال ، فإن هذا يجب ألا ينسينا مقدار ما تحمله فيلسوفنا من سير على الصخور والأشواك ، حتى يسهم ما وسعته قدرته فى تعبيد الطريق إلى هذه الهضبة المثمرة الظليلة .

بعد هذا كله نقول إننا لا نزعم أن كل جوانب الحقائق المتعلقة بفلسفته

الطبيعية قد تكشفت أمامنا كلها . وهذا قد يعد شيئًا طبيعيًّا بالنسبة لدارس يكتب فى موضوع غير مطروق ويسير بمفرده فى طريق بالغ الصعوبة والتشعب ملىء بالمخطوطات والكتب التى ألفها ابن سينا، وفيها أفكار لا تتفق مرة إلا وتختلف مرات أخرى . بل نقول إنه عند ما تكتب أبحاث أخرى فى هذا الموضوع ، وعندما نتأكد من أن المصادر المطبوعة أو المخطوطة التى اعتمدنا عليها هى وحدها التى كتبها ابن سينا ، أو على الأقل هى الموجودة بين مكتبات العالم شرقًا وغربًا ؛ نقول عند ما يتاح أمامنا هذان الأمران ، فإن ذلك قد يكون كفيلا إما بالثبات على رأى من الآراء التى توصلنا إليها فى ثنايا بحثنا هذا ، أو تعديل ونفى لرأى آخر .

نرجو أن يكون كتابنا هذا بما يتضمنه من فصول عديدة ، عونًا على تكوين رأى أكثر اعتدالاً إزاء فلسفة هذا الرجل ، رأى لا يغمط فيلسوفنا حقه وسط أخطائه العديدة ، كما لا يبالغ فى تصوير عبقريته بمحاولة تلمس مزاياه وإضفاء معان عليها ، كانت بعيدة عن ذهن فيلسوفنا . وعندنا أنه عظيم بين رجال الفلسفة فى أرجاء الدنيا ـــ ولكن هذه العظمة كثيرًا ما يعتورها النقص فى بعض الأحيان . وإذا كنا قد أشرنا إلى أخطائه العديدة ، فإن ما يشفع له ، عبقريته التى نلمحها بين ثنايا مذهبه الذى ينضوى تحته آلاف من الظواهر حاول فيلسوفنا تقديم تفسير لها . إنها العبقرية التى تتقدم فى خطاها تارة وتبطئ تارة ، تمامًا مثل الكواكب المتلألئة فى أرجاء السموات والتى تبدو لنا وكأنها تسرع أحيانًا وتتمهل أحيانًا أخرى. تتوهج مرة وتخبو مرة .

كما نرجو ـــ وقد عاهدنا أنفسنا أن نظل إلى آخر المطاف حاملين مصباح ديوجانس نضىء به جوانب ما زالت مظلمة من تراثنا العربى ـــ أن نكون قد وفينا جزءاً من واجبنا نحو أحد أجدادنا العظام ، وقدمنا محاولة ذاتية لتفسير نظام فلسفته الطبيعية قد تكون عونًا لنا على تعديل نظرتنا لهذا الجانب من فلسفته . وذلك حتى تدق أجراس الحقيقة فى كل مكان معلنة للعالم كله دور فلاسفتنا وعلمائنا فى التطور الحضارى فى خلال تاريخ البشرية .

والله هو الموفق للسداد .

القاهرة فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٦٩ م .

محمد عاطف العراقى